الكتابات السياسية الكاملة

القائد المؤسس ميشيل عفلق

في سبيل البعث - الجزء الأول

الباب الاول - أفكار وتأملات

ثروة الحياة - 1936م

سأحاول في هذه الكلمة أن أزيل شيئًا من سوء التفاهم الذي لا يزال يحول بين الشباب الثوري وبين العدد الأكبر من الشباب العربي. فإذا كان الشباب في هذه البلاد لم يأتِ إلينا بعد بالسرعة واللهفة اللتين نريدهما، فما الذنب كله يُلقى عليه. إننا حتى الآن لم نعرف أن نفصح عن أفكارنا بوضوح، ولا أجهدنا أنفسنا الجهد الكافي لكي يكون كلامنا مفهومًا لدى الآخرين.

نعم، إننا ثوريون ندعو إلى شكل جديد من أشكال المجتمع، نعتقد فيه الخير وتحقيق السعادة. ولكن ألا يحق للذين لم يهتدوا بعد إلى ما اهتدينا إليه، ولا اطلعوا على الذي اطلعنا عليه، أن يسألوا(وما هي فضائل هذا الجديد الذي تقترحونه علينا. إننا مستاؤون من القديم، ولكن أيكفي ذلك أن يورطنا في جديد مجهول؟). إنهم على صواب. وليت هذا الجديد كان مجهولاً عندهم، إذن لاكتفينا بتعريفه إليهم، ولكنهم يعرفونه معرفة خاطئة مشبوهة، وواجبنا يقضي بأن نمحو هذه الشبهات عن وجه الحقيقة.

ومن حسن الحظ أننا لسنا رجال سياسة يختارون الشوارع والحفلات لينشروا دعايتهم، ويخاطبون العقل القاصر والشعور السطحي الفائر. إن أحلامنا أصعب، وأطماعنا أبعد، لذلك اخترنا الكتابة طريقًا لبث أفكارنا، وهي على عكس الخطابة ، تتوجه إلى العقل الهادئ الرصين، والعاطفة العميقة الصادقة.

هذا ما يضمن لنا انتباه الشبيبة المثقفة المتحفزة لفهم الحقيقة واعتناقها إذا آنستها في جهة ما. ولكننا لم نعمل حتى الآن إلا على تخييب ظنها فينا. وهل يروي ظمأ هذه الشبيبة أن نقتصر على لعن المجتمع البرجوازي والإشادة بذكر الفردوس الأرضي الذي نحلم به حلم المؤمن بأطياف الجنة؟

لو سئلت عن أسباب ميلي إلى الاشتراكية لأجبت (إن ما أطمع به منها ليس زيادة في ثروة المعامل، بل في ثروة الحياة). وليس همي أن يتساوى الناس في توزيع الطعام بقدر ما يهمني أن يتاح لكل فرد إطلاق مواهبه وقواه. وقد لا يرى العامل الرازح تحت بؤسه في الاشتراكية إلا وعدًا بأن يأخذ ما هو محروم منه، ولكني لا أنظر إليها أنا إلا كعطاء دائم سخي، بأن نعطي الحياة أضعاف ما بذلته لنا.

حتى اليوم نظر الناس إلى الحياة نظرة الكافر الجاحد، لا نظرة المؤمن الواثق. هم يستكثرون منها أقل شيء لأنهم لم ينتظروا منها شيئًا، على أنها أغنى مما يظنون. لست أصدق أن القرن الكامل من السنين يعجز عن إنتاج أكثر من فرد أو فردين، أو عشرة أفراد يليق أن يمثلوا الإنسانية، وأن نقول في الواحد منهم: هذا هو الإنسان.

لقد طال الأمد على الناس وهم يعتقدون الحياة فرنًا وحشيًا هائلاً توقد فيه الملايين منهم لاستخراج حبة من الذهب، وما أحراهم أن ينظروا إليها كحقل واسع مديد تتفتح فيه الورود والأزهار من كل جانب بشتى الألوان والأشكال.

كان العرب القدماء يعتقدون أن نفس القتيل الذي لم يؤخذ بثأره تتحول بعد موته إلى طائر يحوم حول القبر صارخًا متوجعًا من عطشه المحرق. وكأن هذه حال ألوف النفوس توارى كل يوم في التراب قبل أن تشفي من الحياة ظمأها، لأن أوضاع المجتمع حولتها إلى حيوانات ذليلة تقضي العمر خافضة الرأس إلى الأرض تبحث عن لقمتها، بدلاً من أن تكون مخلوقات بشرية مشرئبه نحو النور تمنح أحسن ما عندها.

إنني أفكر بكل الذين يتململون في زوايا القبور من ثقل الآمال التي لم يتح لهم المجتمع تحقيقها في الحياة، ومن كنوز الخير والحب والحماسة التي بقيت كامنة في قلوبهم وما تسنى لهم إظهارها واستخدامها. إنهم أشبه بشجرة مورقة نقطعها ونلقيها في النار فتزهر وهي تحترق.

إذا كنت أدعو إلى الاشتراكية، فلكي لا تحرم الحياة من مواهب هذه النفوس، وقواها الدفينة، وجهودها الحرة الخصبة. ما نظرت إلى الاشتراكية في يوم من الأيام كواسطة لإشباع الجياع وإلباس العراة فحسب، ولا يهمني الجائع لمجرد كونه جائعًا، بل للممكنات الموجودة فيه التي يحول الجوع دون ظهورها، ولا أرى الأكل غاية له، بل سبيلاً ليتحرر من الضرورات الحيوانية وينصرف إلى القيام بوظيفته الإنسانية.

إن الذي يظن الاشتراكية دينًا للشفقة مخطئ أيما خطأ، وما نحن رهبان نلوذ بالرحمة لنطمئن وجدانًا أقلقه مرأى البؤس والشقاء حتى نعظم في عيون أنفسنا وننام هادئي البال. إننا في دفاعنا عن الجماهير المحرومة لا نمنحهم صدقة، بل نطلب لهم حقًا، ولا يهمنا تخفيف البؤس إذا لم يكن ذلك لزيادة ثروة الحياة. وإذا سئلت عن تعريف الاشتراكية فلن أنشده في كتب ماركس ولينين، وإنما أجيب: (إنها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت).

فهي، بفتحها باب العمل أمام الجميع، وسماحها لكل مواهب البشر وفضائلهم أن تتفتح وتنطلق وتستخدم، تحفظ ملك الحياة للحياة، ولا تبقي للموت إلا اللحم الجاف والعظام النخرة.

المصدر: ميشيل عفلق، الكتابات السياسية الكاملة، في سبيل البعث، الجزء الأول، الباب الأول: أفكار وتأملات، مقال (ثروة الحياة)، 1936م.